بسم الله الرحمن الرحيم

معتقد الاشاعرة وحوار العقل والدين

د. سامي محمود ابراهيم

رئيس قسم الفلسفة

كلية الآداب/ جامعة الموصل/ العراق

من الثابت ان أبو الحسن الأشعري كان يريد أن يقيم مذهبا وسطا يجمع بين منهج المعتزلة العقلاني والفكر السني المعتمد على الرواية والحديث كما انتهى إلى الإمام ابن حنبل. وهكذا فمن جهة تبنى الأشعري نظرية الجوهر الفرد كما وضعها المعتزلة ليقيموا بواسطتها براهينهم العقلية على المسائل الدينية التي سبق ذكرها في المقالات السابقة، وعلى رأسها القول إن الإنسان هو خالق أفعاله بقدرة يحدثها الله فيه عندما يختار هذا الفعل أو ذلك، وبالتالي فالإنسان عندهم حر مختار في أن يفعل أو لا يفعل، وبالتالي يتحمل مسؤولية أفعاله، قال تعالى: " فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره" (الزلزلة: 7ـ 8)، وقوله تعالى: "لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ" (البقرة: 286). ومن جهة أخرى، حاول الأشعري أن يوفق بين هذا الموقف وموقف من يرفضون نسبة "الخلق"، خلق الأفعال، إلى الإنسان، تمسكا حرفيا منهم بمبدأ "لا خالق ولا فاعل إلا الله". وقد اتخذ الأشعري من مفهوم "الكسب" أساسا لهذا التوفيق، فقال إن الإنسان لا يخلق أفعاله وإنما هي من الله، ولكنه يكسب نتائجها إن خيرا فخير وإن شرا فشر، بمعنى أنه مسؤول عما يفعل. ومن هنا طرح معنى "الكسب"؟ كيف يكسب الإنسان نتائج أفعاله وفي الوقت نفسه يعتبر مسؤولا عنها وهو لم يفعلها لأنه :لا إلا الله.. أما القول بأن من النظريات العلمية الحديثة نظرية الكم او الكوانتم مبنية على

القول بالانفصال فهذا خلط بين الأمور، إذ لا علاقة بين ما نحن بصدده هنا وبين تفسير حركة الفوتون " جزيء الإشعاع الضوئي" ، هل هي على شكل موجات أو على شكل جزيئات منفصلة. إن نظرية الجوهر الفرد كما صاغها المتكلمون، معتزلة وأشعرية، تقتضي أن عند تحريكك هذا القلم خلق الله أربعة أعراض ليس منها عرض سببا للآخر، بل هي متقارنة الوجود لا غير. العرض الأول إرادتي أن أحرك القلم، والعرض الثاني قدرتي على تحريكه. والعرض الثالث الحركة الإنسانية نفسها، أعني حركة اليد. والعرض الرابع تحرك القلم. لأنهم زعموا أن الإنسان إذا أراد شيئا ففعله، بزعمه، فقد خلقت له الإرادة وخلقت له القدرة على ما أراد وخلق له الفعل، لأنه لا يفعل بالقدرة المخلوقة فيه ولا أثر لها في الفعل. وهذه الإرادة المخلوقة على زعم كلهم والقدرة المخلوقة، وكذلك الفعل المخلوق عند بعضهم، كل ذلك أعراض لا بقاء لها، وإنما الله يخلق في هذا القلم تحركا بعد تحرك، هكذا دائما طالما القلم متحرك. فإذا سكن فلم يسكن حتى خلق الله فيه أيضا سكونا، ولا يبرح يخلق فيه سكونا بعد سكون طالما القلم ساكن. ذلك هو رأيهم في الأفعال التي تنسب للإنسان، كتحريك القلم، أما رأيهم في حوادث الطبيعة التي لا يعقل أن يستعمل فيها لفظ "الكسب" فقد استعملوا فيها لفظ "العادة"، وهو مفهوم يسلخه بعض معاصرينا عن سياقه النظري والتاريخي ليقارنه بمفهوم العادة عند ديفد هيوم. وشتان ما بين الإثنين.

بهذا اتضح لنا ان المجتمع الإسلامي في القرون الأولى كان منسجما من الناحية العقلية والدينية. لكن بعد دخول مجتمعات بأكملها تقريبا في الإسلام تحول الوضع؛ فهناك الرواسب الدينية الاجتماعية والعادات السابقة على الإسلام، وهناك الجدل الحاد مع النصارى واليهود وغيرهم من الديانات والنحل. وهذه الطوائف أدركت أن من جوانب القوة في جدلها مع المسلمين إثارة دلالات الآيات المتشابهات، إما للتشكيك في صحة الإسلام بنسبة نصوصه إلى التناقض؛ أو بحمل معاني هذه النصوص على عقائد وقضايا موجودة في هذه الأديان. ويضاف إلى مثل هذه الشبهات التي تفتن العامة ضغط المعتزلة.

وفـي هـذه الفـترة الدقيقـة والحرجـة مـن تاريـخ المجتمعـات الإسلامية في المشـرق كـان تحـول أبـي الحسـن الأشـعري إلـى مذهب أهل السنة.

ولم يكن إسهام الأشعري مجرد إبداع رجل متفرد في علمه وفي استيعاب الآراء الرائجة في عصـره؛ بـل كـان كـذلك ثمـرة تطـور العقل وهـو ينتقـل مـن مرحلـة تجنـب الخـوض فـي دقـائق علـم العقيدة كالذات الإلهية إلى مرحلة الدفاع عـن العقيـدة الصـحيحة بالأدلة والبراهين التي تناسـب طبيعـة التحـدي العقـدي والفكـري في المجتمعات المسلمة، وخاصة تلك التي تأوي ديانـات متعـددة ومذاهب متصارعة. فقد كان الأشعري امتدادا لطائفة من الاعلام الذين خلفوا الأئمة الأوائل كـأبي حنيفـة ومالـك والشـافعي وابـن حنبل فـي تصـديهم للإنحرافـات العقديـة ولكـن بأسـلوب يناسـب التحديات الجديدة.

ومع أن أتباع الأشعري من علماء كل عصر قـد أضـافوا تفصـيلات وتدقيقات واختيارات إلى المذهب؛ فإن الأشاعرة يشـتركون فـي الخصائص الآتية:

1- احترام النصوص واعتبارهـا المصـدر الرئيـس للعقيـدة. يقـول الأشعري في "الإبانة عن أصـول الديانـة": قولنـا الـذي نقـول بـه وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب ربنـا عـز وجـل وبسـنة نبينـا صلى الله عليه وسلم، وما روي عـن السـادة الصـحابة والتـابعين وأئمة الحديث .

2- حمل النصوص على ظاهرها مبدئيا، وعدم اللجوء إلى التأويـل إلا إذا أوجبته ضرورة تنزيه الخالق عز وجل عمـا لا يليـق بـه مـن الصفات.

3- تأييـد معـاني العقيـدة الـتي وردت بهـا النصـوص الشـرعية بالبرهان العقلـي الـذي يوظـف كـل مـا يمكـن أن ينصـر العقيـدة السنية كالمعطيات الكونية والطبيعية والمنطق والفلسفة وثقافـة العصر عموما.

وقد أثمرت هذه الخصائص فكرا عقديا يقوم على الأصول التالية:

1- إثبات صفات أزلية الله عز وجل زائدة على الذات؛ كالعلم والقدرة والإرادة... وما جاء في القرآن والحديث الصحيح من الصفات الخبرية الموهمة لتشبيه الله تعالى بخلقه وتجسيمه كالاستواء على العرش، وإثبات الوجه واليد، يقع تأويله بما تدل عليه من السيطرة والقدرة والذات.

2- القرآن الكريم كلام الله، قديم باعتباره كلاما نفسيا قائما بذات الله تعالى، وهو صفة من صفات الله. أما الأصوات والحروف فهي حادثة.

3- أفعال العباد خيرها وشرها من خلق الله؛ والإنسان يكتسبها بالقدرة التي خلقها الله فيه.

4- رؤية الله بالأبصار ثابتة في الآخرة.

5- مرتكب الكبيرة يظل مؤمنا؛ ولكنه يعاقب في الآخرة.

الى هذا الحد الى ان الغرب الإسلامي لم يكن بمعزل عن التحولات الفكرية التي تعرفها بلدان المشرق. كما أن علماء المشرق أنفسهم كانوا حريصين على أن تصل آراؤهم ومذاهبهم إلى مختلف ربوع العالم الإسلامي.

وقد أسهمت الأشعرية مع المذهب المالكي والتصوف في خلق انسجام مذهبي وعقدي في المغرب جنبه كثيرا من القلاقل والفتن التي كانت تقع في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي بسبب الخلافات العقدية. وبرغم بروز اتجاهات عقدية غير أشعرية عند بعض علماء المغرب بعد القرن السادس الهجري؛ فإن التعبير عن الخلاف كان محصورا في السجال العلمي. ولم تتحول الأشعرية إلى موضوع نقاش وأخذ ورد في المجتمع المغربي بل في الغرب الإسلامي عموما إلا بعد أن تعرضت لهجوم ممنهج في العقود الأخيرة.